

غانم وسر الكرسي المتحرك

إهداء

إلى صقرنا الصغير الذي يرسم بجناحيه القصيرين

حدود فضائنا الكبير !

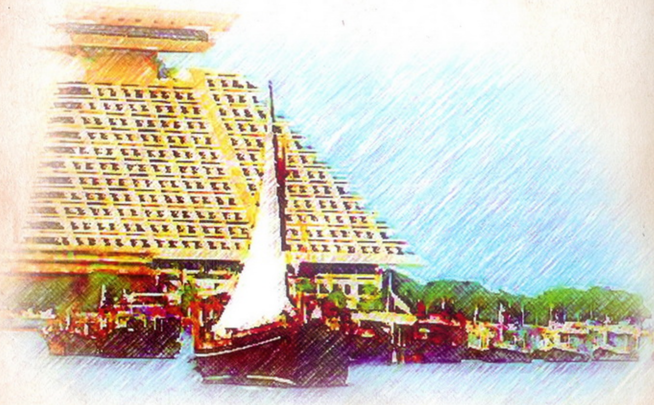
والداك .



كان يا ما كان، في زمان يشبه تماماً هذا الزمان، طفل صغير اسمه غانم يعيش مع عائلته في قطر وهي بلد جميلٌ تجمع ما بين البحر وحكايات اللؤلؤ، وبين الصحاري وحكايات النخيل.

كان غانم مختلفاً عن غيره من الصغار، إذ ولد بجسم غير مكتمل، لكنه تمكن من التغلب على حالته الصعبة بالاعتماد على يديه الصغيرتين الطريتين وعلى حنان أهله.

في أحد الأيام، أخبره والده أنه سيحضر له كرسياً على عجلات ليساعده على الحركة والتنقل. كان إيقاع الكرسي المتحرك جامداً وغير منسجم إطلاقاً ليس فقط مع صالونهم الدافئ الخافق بالألوان، بل مع نبض قلبه المشع فرحاً وحلماً.





نظـر غـانم بعينيـه الحائرتـين إلى الكرسي وتأمله عميقاً واستشعر غصة في قلبـه.. فقلب غـانم مثل قلوب كل الصغارَ تعيش فيه شمس جوالة، لكن غيوم الخوف والخجل غطت الشمس.

(الآن سـيلحظ الجميـع أنني مختلف وتلاحقني نظرات الشفقة). فكر بصمت وارتجف كأن ماءاً بارداً يسـكن جسده الصغير..

أبحرت عيناه في ظهر الكرسي.. (كتفاه عريضتان واسـعتان وكتفاي صغيرتان ضـيقتان!!) ثـم نظرتـا بعتـب إلى قوائمه.. (أربعة قوائم طويلة؟ تحتذي كل واحدة فيها عجلة مستديرة وأنا؟ أنا ما عمري انتعلت حذاءً!).

كانـت نظـرات والديه تتابعـه بحنان وحـب، وقد بدا لهم مثل طير صـغير فقد زغبه حتى قبل أن ينمو، يخشى أن يأوي إلى حضن هذا الكرسي.

أما هو؟ فخـارج اللحظة ويقفز للمرة الأولى بساقيه القصيرتين أبعد من المكان!





ومرت الأيام..

أيام تركض خلف أيام، وشموس تركض خلف شموس، وأقمار تركض خلف أقمار..

أيام اعتاد خلالها غانم الكرسي المتحرك كجزء من عالمه، يقوده داخل المنزل وخاصة في الطابق الأرضي، وخارجه في نزهاته مع الأسرة. وقد منحه إحساساً بأنه أكثر خفة في التنقل وأقل حاجة إلى المساعدة فبات الكرسي صديقه.

إلى أن جاء يوم.. وحدث أمر غريب؟؟؟؟؟؟



في هذا اليوم، رافــق غانم أهله إلى سوق واقف وهو أقدم سوق في قطر. كان الوقت غروباً والشمس تخلع عنها عباءتهَـا الموشـحة باللونين الأحمر والبرتقـالي لتنـزل إلى البحـر وتنام، والهواء يمتلئ بنسمات منعشة وصدى لأصـوات مختلفـة تعلـو وتنخفض: زائـرون.. سـائحون.. أصـحاب محال تجارية.. ومجموعات متفرقة لعائلات مع أطفال يقفـزون هنا وهناك.. قادته الشـمس الجوالة التي تسـكن قلبه.





إلى اكتشاف السوق: فتنزه يرافقه أخيه التوأم أحمد في بعض ممراته و دروبه المتعرجـة.. هنا تبـاع أدوات المطبخ وهنـاك يقدمـون بعضـ الحلويـات الشـعبية المعجونة بالهال والسكر، وفي تلك السلال يتلألأ تمر قطر الطيب.. وأحدهم مر قربه ذكـر هريس الوالدة الطبق القطري الشـعبي.. وعند تلك الزاوية حلاق..

(حتى السـوق له ريول يوقف عليها؟

وعلشان جذي يسـمونه سوق واقف؟.

أبي أقص شعري.. هالناس ما يتكلمون قطري!.

أحمـد؟ أمهم بعد عندهـا دكان تبيع فيه هريس؟!).



كان غانم يلقي التعليقات المرحة اللطيفة من هنا وهناك، مستمتعاً بالمكان بالرغم من استحالة حركته، حتى أنه شارك الصغار لعبهم! فركض خلفهم بعينيه.. وقاد دراجاتهم بعينيه، وتبعهم بين أزقة السوق بعينيه، وتسلق حيطانه العتيقة بعينيه؛ عيناه اللتان تلمعان فرحاً وطفولة وبهجة.

في جولته، لفتت نظره مجموعة صغيرة من الصقور معصبة العينين ومعروضة أمام أحد الدكاكين.. فدنا منها وقلبه ينبض بحزن غريب، فهمست له الشمس الجوالة:

(غريب أمرهم! شاء الله لك ألا تمشي.. لكن تلك الصقور تملك نعمة البصر ومع ذلك يحكمون عليها بالعمى؟!).



ناداه الســوق ليتعرف على زوايا بعيدة وطرقــات ضـيقة كثيرة. لكــن أغلبها استعصــى عليــه لعدم توفــر ممرات خاصـَة تراعــي حالته؟ فــأدرك أن صــديقه الجديــد الكرســي المتحــرك يشــبه تلك الصــقور: قــادر أن يتحرك إنما محكوم عليــه بعدم الحركة في أكثر الأمكنة! ومــرة أخرى باحت له الشمس الجوالة التي تسكن في قلبه (أنت قطــري.. ومن حقك تتعرف على كل شبر بقطر).

ضج في صــدره الإحساس بالحرمان: الحرمان من جسد.. من سيقان.. ومن



أمكنة كثيرة في قطر. فشعر بالانكسار وعــاد إلى أهله ينضــم إليهم وكانوا قد اتخذوا مجلســاً في أحد المقاهي الشعبية. وقد اصطفت أمامهم على الطاولات الخشبية مجموعة متنوعة من أكواب الشــاي والحليب بالزنجبيل وفطائر الجبنة والصعتر.





بدأ الطقس يتغير ورياح الصحراء تهب باردة بعد أن نامت الشمس، والقمر يطل برأسه خجلاً من خلف الغيوم المتجمّعة، كأنه يعتذر عن ضوئه الخفيف من المصابيح الكهربائية الموزعة في أرجاء السوق التي ساعدته على إنارة المكان.

طفا غانم فوق كرسيه يستدفئ بكوب الشاي الساخن ويهدئ جوعه بفطيرة الجبنة الذائبة فوق الخبز، ولم تمض لحظات حتى بدأت الفرقة الشعبية القطرية القابعة في وسط الساحة العريضة التي يشرف عليها المقهى تدندن أغنية تحكي حكاية عن أهل البحر.

(يمه الأغنية حلوة وايد!). قالها بحماس وقاد كرسيه المتحرك باتجاه الفرقة لينضم إلى الحشد المتجمهر حولها ويشاركها دندنتها بصمت!





وتماماً مثل أي طفل صـغير حملته حكاية الأغنية إلى عـالم أحداثها، فـإذا به يلحق الشـمس الغافية في عمق البحر، وفي لحظة جميلة دافئة، تحول سوق واقف إلى بحر واسع.. الكبار فيه أمواج ضـخمة والصغار أسماك ملونة.. سـمك أحمر.. سـمك أصـفر.. فضـي.. ذهبي.. أما هـو؟ فتخيل أنه حبة لؤلؤ وصديقه الكرسي محارة!

لكن أحد ما سرق منه الخيال؟.

أحد ما صاد اللؤلؤة من محارتها؟

عيون غريبة حدقت به بتعجب وخوف وتفرسـت في جسـمه الصغير باحثة عـن الباقي فلم تعـثر عليه. فتمعنت به بشفقة واضحة.. شفقة لا ترحم!

وجوه غريبة مسـتغربة، مندهشـة أخرجتـه عنـوة من حلمـه البحري ليعود إلى أهله منكسر الخاطر، مبلل الرمش و القلب.

خفق قلب غانم حزنـاً ووجعاً... خفق حتى أعلى من صـوت الأغنية! ومرة ثانية، قاد كرسيه على عجل إلى أمه، فضمته إلى حضـنها ليبوح بوجعه: (يمـه الكل يطالعنـي.. يمه كله من الكرسي).

كان غانم يشـعر فوق كرسـيه أنه عار مـن كل شـيء، إلا من جسـمه غير المكتمل، أما في حضن أهله فيرتدي أجمل ثياب الحب.





تلك الليلة، بعد أن رجعوا من جولتهم إلى المنـزل، وفيما والدتـه منهمكة بترتيـب شـؤونهم هـو و إخوته قبل النوم، بَقي غانم في غرفة الجلوس في الطابق الأرضـي وكان قد غادر كرسيه، يتمرغ، يلهو، يحبو على يديه، متمايلاً بجسده غير المكتمل لكن فجأة؟

لا أحد يعرف ما جرى؟

وحتى اليوم لا أحد يعرف ما جرى؟؟

إلا غانم!!

فجـأة؟!! وجـد نفسـه وحيـداً مـع الكرسي.

أيـن اختفى أهله ؟ أخوتـه؟ لا أحد يعرف ما جرى!.

حلـم أم حقيقـة؟ لا أحـد يعرف ما جرى؟!





نظر غانم إلى الكرسي شذراً مستعيداً أحداث السوق خاصة تلك الوجوه التي لفت نظرها الكرسي فصادته هو. فزأر كأسد جريح :

– أيها الكرسي.. أنا منذ رأيتك لأول مرة لم أحبك. ثم تصادقنا وأحببتك. لكني اليوم لم أحبك، فأنت تشعرني بالخجل.

فإذا وبلحظة، هي من خارج المكان والزمان، يتحول الكرسي إلى صقر، فارد الجناح: صقر بلون رمال الصحراء، صغير الرأس، واسع الصدر، شديد سواد العيون، طويل. طويل الرقبة ويكسو ساقيه ريش طويل.. طويل..

– أما أنا فأحبك منذ آلاف السنوات.. من قبل حتى أن تولد.. أحببتك وسأظل أحبك لأنك تشعرني بالأمل .

رد عليه الصقر بابتسامة حنونة.

– يا الله! أنت صقر؟.

سأله غانم متعجباً .

– ولم العجب؟ ألم تشبهني بالصقور في سوق واقف؟

– لكنك كرسي.. و..



فقاطعه الصقر بصوت عميق:

سأروي لك حكايتي:

– أنا صقر والصقور لا تكذب ولدت في هذه الأرض منذ ٤٠٠٠ سنة. لكنني كنت مثل كل الصقور مفاخراً جداً.. أتباهى بجناحي الكبيرين وصدري العريض وقدرتي الذائعة الصيت بالارتفاع والتحليق.. فأنا لا أطير بل أحلق حتى كأنني أطال الغيم.

وفي يوم خطر لي أن أهبط إلى نخلة شامخة. ففعلت. فإذا فيها طير صغير منتوف الريش وله جناح واحد قصير. فاجأني شكله واستخففت به وحدقت به طويلاً وزعقت به مستهزئاً:

– يا لك من بائس مسكين؟ منتوف الريش ولك جناح واحد فقط؟



– وهل تضمن جناحيك إلى الأبد؟

أجابني بابتسامة طيبة.

– طبعاً. فأنا سيد الفضاء و الله خلقني بأحسن بهاء.

– وأنا احمد الله انه خلقني بهذا الشكل ولم يحرمني نعمة الذكاء.

استفزتني كلماته. فأجبته باحتقار:

– أيها البائس المسكين. بأية حال لا يبدو لي أنك صيد ثمين.

– ولا يبدو لي انك صقر فهيم حكيم.

رد علي بابتسامة مسالمة.

أغضبني جوابه إلى حد الجنون.. فزعقت به وانا أفرد جناحي لأرهبه :

– احذر! فأنا قادر على قتلك.

– قل إن شاء الله. فالله خلقني والله يحميني.

أجابني والابتسامة لا تفارقه.





وتابع الصقر يروي حكايته لغانم:

بقينا على هذه الحال لفترة ليست طويلة ولا قصيرة.. أتردد خلالها يومياً إلى النخلة لأزعجه وأرعبه وأهدده واستخف به مستعرضاً حسني وشكلي وقدرتي.. كنت دائماً أكرر نفس الكلام.. وكان دائماً يجيبني بابتسام:

– قل إن شاء الله. فالله خلقني والله يحميني.

إلى أن استدعاني يوماً سيد الجو الكبير، وهو صقر شرس، مرعب و خطير وواجهني حانقاً:

– إما أن تأكل هذا الطير أو آكله ثم آكلك.

تهديد سيد الجو الكبير أقلقني، فطرت عالياً وظللت لمدة قمرين وشمسين، أهيم في الفضاء، تتنازعني مشاعر عمياء. تارة أفكر أنه طير بائس منتوف الريش قصير الجناح لا فائدة منه، وطوراً أشعر انه طير رقيق اعتدت عليه ولا غنى لي عنه!

هبطت بعدها فوق النخلة على عجل وأخبرت الطير البائس بما حصل.. فابتسم لي بحزن ثم نظر في عيني عميقاً وسألني هادئاً أن أحقق له أمنية نادرة ينتظرها منذ سنوات غابرة: أن أجول به في الفضاء ليلامس جناحه القصير أعتى تيارات الهواء. فقبلت.





وهكذا كان.. طرت ونحن اثنان.. وحملته عالياً عالياً.. وحلقت به إلى فوق.. فوق، بسرعة فائقة مثل سرعة الصوت.

فارتفعنا فوق حديقة جميلة غناء فقال لي بصوت عميق:

– أيها الصقر.. وهبك الله نعمة البصر لكن كأنك لا ترى؟ انظر هنا وانظر هناك.. هنا ورد مكتمل التيجان وهناك ورد وقعت عنه بعض تيجانه.. والاثنان يفوحان عطراً. ثم حلقنا فوق غابة واسعة فقال لي :

– أيها الصقر... وهبك الله نعمة البصر لكن كأنك لا ترى؟ انظر هنا وانظر هناك.. هنا شجر جذعه شامخ طويل وهناك شجر جذعه صغير قصير والاثنان يزدانان ورقاً.

و بعدها طرنا فوق بستان فاكهة فقال:

– أيها الصقر.. وهبك الله نعمة البصر لكن كأنك لا ترى؟ انظر هنا وانظر هناك. هنا ثمرة (السدرة) الكنار معلقة على الشجر وهناك فراولة تحت التراب تختبئ عن النظر والاثنان يفيضان عسلاً.

كانت كلماته فيما أنا احلق به وأقارع الريح تقرع في قلبي: (أيها الصقر شتان ما بين البصيرة والبصر!).





أصـغى غانم مأخوذاً إلى الحكاية...
إلى أن غصت حنجرة الصـقر بالكلام
فصـمت شـارداً. وقد طافت في عينيه
السـوداوين دمـوع مثل لآلـئ البحر.
فتعـرف غـانم -لأول مرة- علـى بكاء
الصقور!.

فتابع الصقر يروي بأسى:
بعـد أن هبطنا إلى النخلـة. أخبرته
معتذراً أن وقت قتله قد حان وهمست
بصـوت خفيض (آن الأوان). فرد علي
بابتسامته المعتادة:

– قل إن شـاء الله.. فـالله خلقني والله
يحميني.

وفيمـا أنا أحدق بـه مـتردداً. إذا به
يخفق بجناحه الوحيد القصير بطريقة
غريبة.

راقبته مندهشـاً. ثم سألته مستفسراً.
فلم يجب بل ظل يخفق جاهداً إلى أن
ارتفع عن الأرض قليلا وطار من فوقي
على علو منخفض وقبل أن التفت إليه.
سمعت صرخة استغاثته

(ايهاااااااااااااااااااااااا الصقر!)

فالتفت ورائي.. ورأيتها!.. حية بشـعة
تفتح شدقها لالتهامه أما هو فممدد
عاجـز على السـعفة خلـف قائمتي
اليمنـى. ففهمـت مـا جـرى: كانت
السامة تتسلل خلفي. فلمحها قبلي
وسعى بالرغم من ضعفه وشدة بأسي
أن يلفت نظرها لينقذني. فلسعته.





لم أتحمل ألمه، فهجمت على الحية ومزقتها بمخالبي، ثم دنوت منه وضممته إلى صدري ومسدت ريشه المنتوف.. وحنوت على جناحه الوحيد القصير أقبله، والدمع في عيني غزير.

وقبل أن يغفو إغفاءته الطويلة، رمقني بعينيه الصغيرتين مودعاً ووهبني بحنان ابتسامته الأخيرة قائلاً:

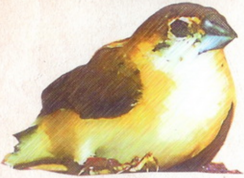
- أرأيت أيها الصقر؟ سبحان مقسم الأرزاق.

وتنهد الصقر متابعاً: منذ ذاك الزمان وأنا أحلق ونحن اثنان.. أخبط الريح ليس بجناحين عريضين بل بجناح قصير نبت له جناحان طويلان، ولا يرانا إلا من يمتلك البصيرة والإيمان.

ثم ختم حكايته معترفاً بسره قائلاً:

منذ ذاك الزمان، وأنا أنقلب يا ولدي، إما عصا لمن لا يبصر أو سماعة أذن لمن لا يسمع أو كرسياً لمن لا يمشي.. ولا تسألني متى وكيف؟ أنه سري الذي أحميه وديني الذي أوفيه.





بعدها حمل الصقر غانم فوق جناحيه وعاد به إلى سوق واقف.. وتحديداً إلى الأمكنة والممرات الضيقة التي استعصت عليه ذاك الغروب.. وغط به في وسط الساحة أمام المقهى:

كانت الفرقة الطربية مختلفة جداً عن تلك التي إلتقاها غانم تلك الليلة فالعازفون مجموعات ملونة، متنوعة، مكتملة وناقصة. فيهم أزهار البنفسج القصيرة وأزهار الخزامى الطويلة، والمشموم والريحان، وأشجار نخيل عالية وأشجار ورد قصيرة، وحبات كنار وفراولة، وأرانب بقوائم قصيرة، ومها بقوائم طويلة.. وحبات لؤلؤ قصيرة وحبال مرجان طويلة.. وبدر وقمر.. ونجوم وشهب.. و.....

أما في وسط الحلقة فيتمايل طير منتوف الريش بجناح واحد قصير يدندن مبتسماً أغنية تحكي عن أهل البحر والبر والفضاء:

شوف النخلة.. تاكل رمل.. تشرب
عطش.. وتعطي بصحارينا تمر..
شوف الصقر.. إذا جناحه إنكسر..
يعلى بروحه وما يبوح للعالم خبر
شوف الجمل.. مهما حمل.. يظل
صابر.. عالي الهمم
وشوف قناديل السما.. فيها قنديل.. إذا
اكتمل.. اسمه قمر وإذا نقص اسمه بدر.
وفيها نجوم تظل ثابتة للنظر..
ونجوم توقع بلمح البصر والكل يضووا
للبشر..
ربنا قدر لنا كل الصور
ويا ويل لي بعيونهن يسكن حجر





ومنذ تلك الليلة وغانم ما عاد يخاف تلك العيون والوجوه الغريبة لأنه يخبئ في روحه سر الكرسي المتحرك يتنقل فوقه حرا.. فرحاً.. جريئاً.. غير ناقص الجسم.

وتقول الحكاية، انه وحتى يومنا هذا.. يروي أهل قطر، انه عندما ينام الليل يبصرون في سوق واقف، صقراً جميلاً يحضن غانم الذي يحضن بيديه الرقيقتين طيراً صغيراً دائم الابتسامة منتوف الريش وله جناح واحد قصير.. وأنهم كثيراً ما يلمحون حول وفوق الطاولات الخشبية في المقهى ظلالاً لكرسي متحرك أو عكاز أو سماعة أذن.

وأهم ما في الحكاية أيضاً أنه وفي عتمة الليل وصمت المكان يتناهى إليهم من الجامع القائم وسط السوق، صدى آية من سورة القمر:

"إنا كل شيء خلقناه بقدر"

صدق الله العظيم.



إصدارات غانم الرابح دوماً



توزع مجاناً

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٧٩٣ / ٢٠٠٨
الرقم الدولي (ردمك): ١ - ٣٢ - ٤٥ - ٩٩٩٢١

طبعة خاصة على نفقة والديه



غانم الرابح دوماً

ص. ب : ٨٠٩٩٨ الدوحة - قطر

E-mail: emanag@qatar.net.qa / eman-ag@hotmail.com